خصائص النص القرآني
ومظاهر إعجازه

Characteristics of the Quranic text and manifestations of his miraculousness

م.د. عباس عبد الستار جاسم

Abbas Abdul Sattar Jassim

ديوان الوقف السني

الملخص

فقد شرعت وبحمد الله تعالى بكتابة البحث الموسوم (خصائص النص القرآني ومظاهر إعجازه) وفيه أبين التعريف اللغوي والاصطلاحي للخصائص والاعجاز وهما محور البحث فنقلت ان تعريف الخصائص جمع خصيصة ومعناها الصفة التي تميز الشيء عن غيره، وتحدده، وذكرت خصائص عديدة منها خمسة ذكرت فيها جريانه على نسق بديع خارج عن المألوف، وتداخل بحوثه وموضوعاته، وصلاحية صياغته لمخاطبة الناس عامة على اختلاف ثقافاتهم وعصورهم، وجريانه على مستوى رفيع واحد على الرغم من تنوع المعاني والموضوعات، وظاهرة التكرار للألفاظ والمعاني.

الكلمات المفتاحية: (الخصائص، النص القرآني، الإعجاز، المظاهر).

Abstract

I have begun, with the praise of God Almighty, to write the research tagged (characteristics of the Qur'anic text and manifestations of its miraculousness), and in it I show the linguistic and idiomatic definition of characteristics and miraculousness, which are the focus of the research. A wonderful format out of the ordinary, the overlapping of its research and topics, the validity of its formulation to address people in general of different cultures and eras, and its flow on one high level despite the diversity of meanings and topics, and the phenomenon of repetition of words and meanings.

Keywords: (characteristics, Quranic text, miracles, manifestations).

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب أعجز الأعاجم والأعراب والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أولى الفصاحة والخطاب.

أما بعد: فلم يشغل العالم كتاب كالقرآن ، ولا خُلد في الدنيا كتاب كالقرآن ، وهو كتاب الله الذي أعجز به العرب وغيرهم أودع الله فيه كل شيء ، فلم يختص بعلم دون علم لا في ألفاظه، ولا في نظمه، ومن إعجازه أنه يبقى مشغلة للدارسين، ومشغلة للعلماء جيل بعد جيل إلى يوم الدين.

وبعد هذه المقدمة قسمت بحثي الموسوم بـ(خصائص النص القرآني ومظاهر إعجازه) إلى تمهيد ومطلبين تليها خاتمة:

أما التمهيد فهو تعريف بكلمتي: الخصائص والإعجاز. ويليه المطلب الأول الذي تحدث عن خصائص النص القرآني ، وقد كان نصيب المطلب الثاني عن مظاهر الإعجاز القرآني.

أما الخاتمة: فأودعت فيها أبرز نتائج البحث.

فهذا مرادي وهذا جهدي وطاقتي، فإن أصبت فالحمد لله، وإن أخطأت فأستغفر الله وأتوب إليه على كل حال، ورحم الله من أرشدني على عيوبي، ومن الله أسأل التوفيق والغفران إنه سميع مجيب.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

التمهيد

أولا: الخصائص: جمع: الخصيصة، ومعناه الصفة التي تميز الشيء عن غيره، وتحدده[1]، وعليه أن هناك خصائص اختص به القرآن الكريم وتميز بها عن الكتب السماوية والأرضية في مفرداته وتأليفه ونظمه ومعانيه.

ثانيا: الإعجاز: مصدر للفعل أعجز ، قال صاحب القاموس: (وأعجزه الشيء فاته وأعجز فلانا وجده عاجزا ، وصيره عاجزا)[2].

فإن الله سبحانه وتعالى أعجز الأنس والجن وتحداهم أن يأتوا بسورة من مثله قال تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾

(١) ينظر: المعجم الوسيط:١/ ١٣٨.
(٢) ينظر: القاموس المحيط:٥١٦.

(١)، وقال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾(٢).

المطلب الأول
خصائص النص القرآني

الخاصة الأولى:

(جريانه على نسق بديع خارج عن المألوف):

إن جميع الفنون التعبيرية عند العرب إما أن تكون نظما أو نثرا فإن كان نظما فله أعاريض وأزان معروفة محدودة ، وللنثر طرائق من السجع والارسال.

أما القرآن فليس له أعاريض الشعر ، وليس على سنن النثر ، فهو لا يلتزم بالموازين المعهودة لا في الشعر ولا في السجع، فعندما يجود القارئ القران ويرتله تجد في تركيب حروفه تناسقا عجيبا بين الرخو منها والشديد ، والمجهور والمهموس ، والمقطوع والممدود ليس هذا فحسب بل عندما تسمع حركات حروفه وسكناته ومداته فتجد اتساقا وائتلافا يجذب من السمع ما يجذب الموسيقي والشعر إلا أنه ليس كأنغام الموسيقى ولا كأوزان الشعر، ومن هنا يتجلى لك جمال لغة القرآن حين خرج إلى الناس في هذه المجموعة المختلفة المؤتلفة الجامعة بين صفات الحروف ومخارجها على وجه دقيق محكم وضع كلا من الحروف وصفاتها المتقابلة في موضعه بميزان لقد وصل هذا الجمال اللغوي إلى قمة الإعجاز، لو دخل في القرآن شيء من كلام الناس لاعتل مذاقه في أفواه قارئيه واختل نظامه في آذان سامعيه(٣).

الخاصة الثانية:

(تداخل بحوثه وموضوعاته):

لقد بلغ القرآن من ترابط أجزائه وتماسك كلماته وآياته وسوره مبلغا لا يداينه فيه أي كلام آخر، ومعنى ذلك أنك إذا تأملت في القرآن الكريم وجدت منه جسما كاملا تربط الأعصاب والجلود والأغشية بين أجزائه ولمحت فيه روحا عاما يبعث الحياة والحس على تشابك وتساند بين أعضائه فإذا هو وحدة متماسكة

(١) سورة الإسراء: الآية:٨٨.

(٢) سورة البقرة: الآية:٢٣.

(٣) ينظر: مناهل العرفان:٢/ ٣١٣. واعجاز القران والبلاغة النبوية:١٤٨، وعلوم القرآن الكريم:٢١٠النبأ العظيم:١٠١.

متآلفة على حين أنه كثرة متنوعة متخالفة فبين كلمات الجملة في السورة الواحدة من التناسق ما جعلها رائعة التجانس والتجاذب وبين جمل السورة الواحدة من التشابك والترابط ما جعلها وحدة صغيرة متآخذة الأجزاء متعانقة الآيات وبين سور القرآن من التناسب ما جعله كتابا سوي الخلق حسن السمت، وهذا هو جودة سبك القرآن(١).

الخاصة الثالثة:

(صلاحية صياغته لمخاطبة الناس عامة على اختلاف ثقافاتهم وعصورهم):

ومعنى ذلك أنك إذا خاطبت الناس ، فتخاطبهم على اختلاف مداركهم وثقافتهم، فالعامي من الناس يفهم منه السطح القريب، والمثقف منهم يفهم مدى معينا من عمقه أيضا والباحث المتخصص يفهم منها جذور المعنى كله، فلو خاطبت العامة باللمحة والإشارة التي تخاطب بها الأذكياء لخاطبتهم بما لا يطيقونه(٢)، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾(٣)، كان الأسلاف عندما يقرؤون هذا النص يفهمون منه ما هو مطابق لواقع حياتهم، كالخيل والبغال والحمير، وهذه وسائل ركوب الأنسان، ولكنهم يتيهون في تفسير وتأويل قوله تعلى: (ويخلق ما لا تعلمون)، بخلاف ما لو قرئت في وقتنا الحاضر ؛ إذ أن المقصود منها: الآلات الحديثة- والله أعلم- وهكذا تجد الآية تخاطب العصور المتتالية، وليست مختصة بقوم أو جيل معين(٤).

الخاصة الرابعة:

(جريانه على مستوى رفيع واحد على الرغم من تنوع المعاني والموضوعات)

إن التعبير القرآني يبقى على نسق رفيع واحد من العلو في جمال لفظه وروعة تعبيره فضلا عن تنقله بين موضوعات مختلفة من القصص والمواعظ وغيرها، ... لذا كان أغلب الميادين الفكرية التي يتسابق فيها علماء البلاغة هي ميادين الفخر والحماسة والموعظة والمدح والهجاء، وكان أقل هذه الميادين اهتماما منهم ميادين الفلسفة والتشريع وغيرها، وذلك هو السر أنك قلّما تجد الشعر يقتحم شيئا من هذه الميادين الخالية الأخرى، ومهما رأيت بليغا كامل البلاغة والبيان، فلا يستطيع التصرف بين مختلف الموضوعات والمعاني على مستوى واحد من البيان الرفيع الذي يملكه، بل يختلف كلامه حسب اختلاف الموضوعات التي

(١) ينظر: مناهل العرفان: ، ومن روائع القرآن: ١٢٠.
(٢) ينظر: النبأ العظيم:١١٣، ومن روائع القرآن:١١٦.
(٣) سورة النحل: الآية:٨.
(٤) ينظر: من روائع القرآن:١١٧.

يطرقها، فربما جاء بالغاية من البراعة في معنى من المعاني، فإذا انصرف إلى غيره انخذل عن تلك الغاية ووقف دونها بيد أنك لا تجد هذا التفاوت في القرآن، فإذا قرأت آيات منه في الوصف، ثم تنتقل إلى آيات أخرى في القصة، وتقرأ بعد ذلك مقطعا في أحكام الحلال والحرام، فلا تجد الصياغة خلال ذلك إلا في علو رفيع عجيب من الإشراق والبيان، فتجد المعاني كلها لاحقة بها شامخة إليها[١].

الخاصة الخامسة:

(ظاهرة التكرار للألفاظ والمعاني):

تأتي هذه الظاهرة في القرآن على نوعين:

أحدهما: تكرار بعض الألفاظ والجمل.

وثانيهما: تكرار بعض المعاني كالأخبار والقصص.

أما الظاهرة الأولى فتأتي على وجه التأكيد تتضمن نكت بلاغية، كالتجسيم والتصوير وغيرها، والتكرار له أثر في تحقيق الأوجه البلاغية، وليس أي تكرار في الكلمة أو الجملة تؤدي إلى التصوير والتجسيد والتهويل، وإنما التكرار له أغراض يرفع بقيمة الكلام إلى الفصاحة في التعبير[٢]، قال تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾[٣]، وكل ما في القرآن من تكرار الكلمة أو الجملة هو على وجه الجمال، أو التهويل، أو التصوير في هذا التكرار من السليقة العربية وذوقها[٤].

أما النوع الثاني فهو تكرار بعض القصص والأخبار، فهو أيضا ظاهرة بارزة في كتاب الله تعالى؛ ويعود إلى غرضين: الأول إنهاء حقائق الدين ومعاني الوعد والوعيد إلى النفوس بالطريقة التي تألفها وهي تكرار هذه الحقائق في صور وأشكال مختلفة من التعبير والأسلوب، وفي بيان هذه الحكمة يقول الله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾[٥]، قال الزركشي: (وحقيقته إعادة اللفظ أو مرادفه لتقرير معنى، خشية تناسي الأول لطول العهد به)[٦].

(١) ينظر: علوم القرآن الكريم:٢١٤-٢١٥، ومن روائع القرآن: ٢١٣-٢١٤.
(٢) ينظر: تأويل مشكل القرآن:١٥١-١٥٢، ومن روائع القرآن:١١٧-١١٨.
(٣) سورة المدثر: ٢٦ - ٢٩.
(٤) ينظر: من روائع القرآن:١١٨.
(٥) سورة طه: الآية:١١٣.
(٦) البرهان للزركشي:٣/ ١٠

أما الغرض الثاني فهو إخراج المعنى الواحد في قوالب مختلفة من الألفاظ والعبارة، وبأساليب مختلفة تفصيلا وإجمالا، وتصريف الكلام في ذلك، حتى يتجلى إعجازه ...، والمثال على ذلك قصة سيدنا نوح في سورة هود، وهي من قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾[1]، إلى قوله تعالى ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[2]، وهي في جملتها اثنتان وعشرون آية، وعندما تقرأ القصة نفسها في سورة القمر من الآية: **٩** إلى الآية: **١٥**، وفي سورة نوح، وعند التأمل في النصوص الثلاثة والموازنة بينهم في الأسلوب كل منها وطريقته في العرض والتصوير والجانب المعنوي الذي يرتكز عليه التعبير القرآني في كل منها، تخيلت أنك تقرأ في كل مرة خبرا جديدا يشوقك أمره وتفاجؤك أحداثه، وتشعر أن النفس بحاجة إلى أن يعرض عليها هذا الخبر من كلا الجانبين وبكلا الأسلوبين[3].

المطلب الثاني
مظاهر الإعجاز

أولا: في المفردة القرآنية:

لقد اهتم النظم القرآني للمفردة واختار المناسب فيها لكل لفظة فتجد من التناسق الرائع بين الحروف في الكلمة الواحدة.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ ﴾[4]، فأغطش: (مساو من حيث الدلالة اللغوية لأظلم. ولكن «أغطش» تمتاز بدلالة أخرى من وراء حدود اللغة يستقل بها الوزن وجرس الأحرف متآلفة مع بعضها. فالكلمة بهذه الدلالة تعبّر عن ظلام انتشر فيه الصمت وعمّ فيه الركود وتجلّت في أنحائه مظاهر الوحشة. ولست بحاجة- لفهم هذه الصورة من الكلمة- إلى وساطة لغة أو مراجعة قاموس وإنما هو إحساس ينبعث في نفسك من طبيعة الكلمة ووقع حروفها)[5].

ومنه أيضا قوله تعالى: ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾[6]، لقد اختار التعبير القرآني لفظة:

(١) سورة هود: الآية:٢٥.
(٢) سورة هود: الآية:٤٩.
(٣) ينظر: من روائع القرآن:١١٩-١٢٠.
(٤) سورة النازعات: الآية:٢٩.
(٥) من روائع القرآن:١٤٠.
(٦) سورة البقرة: من الآية:٢٢٣.

(حرث) دون غيرها من المترادفات ، كالأرض، أو الحقل ، أو الزرع، وذلك لما فيها من الكناية في ذلك، وهو التشابه بين صلة الزارع بحرثه وصلة الزوج بزوجه في هذا المجال الخاص، وبين ذلك النبت الذي يخرجه الحرث وذلك النبت الذي تخرجه الزوج وما في كليهما من تكثير وعمران وفلاح، وعليه فإن هذه الظاهرة التي اختص بها القرآن لا تستفاد من كلمة (الأرض) ؛ لأنها جدباء لا تصلح لحراثة الزرع وكذلك الحقل فإنه لا يدل على عمل المالك فيه بل تدل الكلمة على شيء جاهز لا دخل فيه لبذر الحارث، فإن القرآن الكريم يتناول من الكلمات المترادفة أدقها دلالة على المعنى وأتمها تصويراً وتشخيصاً للصورة وأجملها وأحلاها إيقاعاً ووزناً بالنسبة إلى نظائرها(١).

وقال تعالى: ﴿ فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾(٢)، (استعمل التعبير القرآني كلمة (فأكله الذئب) ولم يستعمل افترسه الذئب، علماً أن الشائع في الاستعمال إطلاق كلمة الافتراس على مثل هذا النوع، وذلك للطيفة دقيقة وهي أن الافتراس من فعل السبع معناه القتل فحسب، وأصل الفرس: دق العنق، والقوم إنما ادّعوا على الذئب أنه أكله أكلاً، وأتى على جميع أجزائه وأعضائه فلم يترك مفصلاً ولا عظماً، وذلك أنهم خافوا مطالبة أبيهم إيّاهم بأثر باقٍ منه يشهد بصحة ما ذكروه فادّعوا فيه الأكل ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة، والفرس لا يعطي تمام هذا المعنى فلم يصح على هذا أن يعبّر عنه إلا بأكل)(٣).

ومنه قوله تعالى: ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾(٤)، فلفظة: (سكنا): (من حيث الدلالة اللغوية مثل قولك: هدوءا، طمأنينة ولكن المعنى الذي تبثه في شعورك الكلمة القرآنية، لا تجد شيئا منه في غيرها مهما تساوى معها في أصل الدلالة اللغوية إن طبيعة الأحرف التي تتكون منها كلمة «سكنا» مع توالي الفتحات على حروفها، تشعرك بذلك الهدوء الذي يبعث الطمأنينة وينشر الأمن والراحة في أنحاء النفس دون أن تحتاج في ذلك إلى معرفة أي دلالة لغوية)(٥).

وإذا أردت أن (تحذف كلمة واحدة من كلمات هذه الآية، وأن تستبدل بها غيرها، مما يؤدي المعنى ذاته، مستعينا باللغة وقواميسها، ترى أن اللغة كلها أعجز من أن تأتي بألفاظ مثلها أو خير منها في الدلالة على المعنى وتصوير الأحاسيس المطلوب تصويرها. ومهما غيّرت في الآية أفسدت من بهائها ونقصت من

(١) ينظر: التصوير الفني:٩١، والإعجاز اللغوي والبياني في القرآن الكريم:٢٤٩.
(٢) سورة يوسف: من الآية:١٧.
(٣) الإعجاز اللغوي والبياني في القرآن:٢٥٠.
(٤) سورة الأنعام: الآية:٩٦.
(٥) من روائع القرآن:١٤٠.

روعتها وإشراقها. ولو بحثت عن أيّ كلمة تقوم مقام «فالق» في أداء المعنى وتصوير المراد وتجسيم الفكرة، أو بحثت عن أي كلمة أخرى تضعها موضع «الإصباح»(١) في دلالتها على الحركة والانبثاق وبثّ الصورة المطلوبة، أو حاول أن تأتي بكلمة أخرى مكان «سكنا» أو بكلمة أخرى أدلّ وأخصر وأجمع من هذه الكلمة العجيبة «حسبانا» فإنك لن تملك من ذلك كله إلا إفساد الآية، وتشويه دلالتها)(٢).

وقد أبدع القرآن تعبيرا عجيبا في لفظة: متكأ، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾(٣)، (مُتَّكَأً كلمة قرآنية، تصور لك من الطعام ذلك النوع الذي لا يقدّم إلا ترفا وتفكها وتجميلا للمجلس وتوفيرا لمظاهر المتعة فيه، حتى إن الشأن فيه أن يكون الإقبال إليه على حالة من الراحة والاتكاء والكلمة من الألفاظ الكثيرة التي أبدع القرآن صياغتها واشتقاقاتها فتعلق العرب بها من بعد، ولولا ذلك لما اهتدوا إليها ولخانتهم اللغة في هذا الباب عن تصوير ما يريدون)(٤).

ومن أمثلة مظاهر الإعجاز في المفردة القرآنية قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾(٥)، يقول ابن جني: (أي: تزعجهم وتقلقهم, فهذا في معنى تهزّهم هزًّا, والهمزة أخت الهاء, فتقارب اللفظان لتقارب المعنيين، وكأنهم خصّوا هذا المعنى بالهمزة؛ لأنها أقوى من الهاء, وهذا المعنى أعظم في النفوس من الهزّ؛ لأنك قد تهز ما لا بال له كالجذع وساق الشجرة)(٦)، فانت ترى ذلك الترابط الرائع بين اصوات التركيب تؤزهم ازا وبين دلالته فالأز هو الهز والاستفزاز الباطني وهو مأخوذ من أزيز القدر اذا اشتد غليانها(٧).

وقال تعالى في سورة أخرى: ﴿ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴾(٨)، عند التأمل لهذه الآيات المباركة والالفاظ

(١) بخلاف لو قال صباح فإنها لم تعط المعنى الذي أعطته مصباح لما فيها من زيادة ودلالة على المعنى فناسبت السياق القرآني.
(٢) من روائع القرآن:١٤٠.
(٣) سورة يوسف: الآية:٣١.
(٤) من روائع القرآن:١٤٢.
(٥) سورة مريم: الاية:٨٣.
(٦) الخصائص:٢/ ١٤٨.
(٧) ينظر: مقدمة لدراسة علم الدلالة:١٠٥.
(٨) سورة الهمزة: من الآية:٤-٩.

المبدوءة بـ(الضمة) في أصواتها الأصلية هُمَزَة_ ولُمَزَة_والحُطَمَة المكررة_ الموقدة، ومؤصدة وممددة، فكأن صوت الضمة في هذه المواضع المتتابعة يثير في إحساس المتلقي ثقلا ليوحي إلى ما تشير إليه لفظة (ويل) من رهبة ورعب وخوف، ثم تتوالى حركتا الفتحة على أصوات شديدة قوية النبرة قاسية الابداع: الحاء، والطاء، والقاف، والصاد والدال، فيصبح ثقل هذه الحروف، وثقل الضمة خفيفا مستحبا على اللسان مؤثرا في السمع محققا إيقاعا ينسجم مع فعله الهمزة ومعنى الهمز. الذي يهزأ بالناس ويلمزهم(١).

قال مصطفى الرافعي في كتابه إعجاز القرآن: (... إن الحركة ربما كانت ثقيلة في نفسها لسبب من أسباب الثقل أيها كان... فإذا هي استعملت في القرآن رأيت لها شأنا عجيبا، ورأيت أصوات الأحرف والحركات التي قبلها قد امتهدت لها طريقا في اللسان واكتنفتها بضروب من النغم الموسيقي حتى إذا خرجت فيه كانت أعذب شيء وأرقه وجاءت متمكنة في موضعها وكانت لهذا الموضع أولى الحركات بالخفة والروعة)(٢).

وقال تعالى: ﴿ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾(٣)، عندما يتأمل القارئ قوله تعالى: اثاقلتم، أي: تباطأتم وتقاعستم، فكأن التركيب يحرض الذهن ليتخيل ذلك الجسم المتثاقل، أي: كأن في هذه الكلمة طنا على الأقل من الأثقال، ولو يقال: تثاقلتم... لخف الجرس ولضاع الأثر المنشود ولتوارت الصورة المطلوبة التي رسمها هذا اللفظ واستقل يرسمها(٤).

ثانيا: في الجملة القرآنية:

لقد اهتم النظم القرآني ايضا بالجملة كما اهتم بالمفردة فتجد التناسق الرائع بين الكلمات في الجملة الواحدة كما تجدها بين الحروف في الكلمة الواحدة .

ويتلخص مظهر الإعجاز في الجملة القرآنية في ثلاثة أمور:

الأمر الأول: الاتساق اللفظي والإيقاع الداخلي.

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْاْ بِٱلنُّذُرِ ﴾(٥)، ويقول عز وجل في السورة نفسها ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾

(١) ينظر: مقدمة في علم الدلالة:١٠٧.
(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية:١٥٦.
(٣) سورة التوبة: من الآية:٣٨.
(٤) ينظر: التصوير الفني:٩١، و مقدمة في علم الدلالة:١٠٨.
(٥) سورة القمر: ٣٦

تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾[1].

عند التأمل في هذه الآيات تجد تناسق الكلمات في كل جملة منها، وتدقيق النظر عند تآلف حروف الرخوة مع الشديدة والمهموسة والمجهورة وغيرها، وبعد التلبث في تآلف الحركات والسكنات والمدود وتعاطفها مع بعضها علمت أن هذه الجمل القرآنية إنما صبّت من الكلمات والحروف والحركات في مقدار، وأن ذلك إنما قدّر تقديرا بعلم اللطيف الخبير، وهيهات للمقاييس البشرية أن تقوى على ضبط الكلام بهذه القوالب الدقيقة ولعل من أبرز آثار هذه الظاهرة، أن حفظ القرآن غيبا أيسر على الإنسان من حفظ سائر أنواع النثر؛ لأنه منضبط بأوزان وإيقاعات مخصوصة به، فيسهل بذلك حفظه والتنبه إلى الخطأ الذي قد يقع القارئ فيه عند ما يقرؤه غيبا[2].

الأمر الثاني: دلالتها بأقصر عبارة على أوسع معنى.

ومثاله قوله تعالى: ﴿ وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفۡسٌ إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوۡلُودٞ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ وَعَلَى ٱلۡوَارِثِ مِثۡلُ ذَٰلِكَۗ فَإِنۡ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٖ مِّنۡهُمَا وَتَشَاوُرٖ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَاۗ وَإِنۡ أَرَدتُّمۡ أَن تَسۡتَرۡضِعُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا سَلَّمۡتُم مَّآ ءَاتَيۡتُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾[3]، آية واحدة... تضمنت ثلاثة وعشرين حكما منوطة بنظام الأسرة، لم يستخرج واحد منها تمحلا ولا تكلفا، بل هو بين أن تكون الآية دلت عليه بصريح المنطوق أو بجلي المفهوم أو بمقتضى النص، ولو حاولت التعبير عن هذه الأحكام بصياغة جلية دون اختصار مخل أو إطالة من غير لزوم، لأدى ذلك منك ما لا يقل عن خمسة أضعاف النص القرآني، وعند التأمل إلى أحكام الميراث في كتاب الله عز وجل، والتلبث كيف صيغت فيما لا يزيد عن ثلاثة عشر سطرا من أسطر القرآن، موزعة في آيتين، فقد حوت الآيتان أحوال الوارثين ونصيب كل منهم في كل حال من الأحوال، وانبثق منهما علم مستقل يمثل شطرا كبيرا من أحكام الشريعة، وهو علم الميراث الذي ألفت فيه كتب مستقلة، ويا للعجب كيف اتسع مضمون آيتين من القرآن لمدلولات كتاب كامل، وهذا الذي تعجب منه حقيقة ثابتة[4].

(١) سورة القمر:١١-١٤.
(٢) ينظر: من روائع القرآن:١٤٤-١٤٥.
(٣) سورة البقرة:٢٢٣.
(٤) ينظر: من روائع القرآن:١٤٧.

الأمر الثالث: إخراجها المعنى المجرد في مظهر الأمر المحسوس:

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1].

قال سيد قطب: (هكذا لوحة بعد لوحة، إرسال الرياح، وإثارة السحاب. بسطه في السماء، جعله متراكما، خروج المطر من خلاله، نزول المطر، استبشار من يصيبهم بعد أن كانوا يائسين، إحياء الأرض بعد موتها – كل هذا–؛ لينتقل من هذه المشاهد المتتابعة بعد استعراضها للعين والخيال ، وبعد تركها تؤثر في النفس على مهل إلى قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾، فيجيء هذا التقدير في أنسب الأوقات للتقرير)[2].

ومن خصائص مظاهر النص القرآني أن آياته الكريمة تنتهي بفواصل منسجمة موسيقيا تعطي دلالة تناسب هذه الفاصلة، وأن القران يهتم بهذا الانسجام لما فيه من تأثير على السمع وتأثير على النفس، فتارة يقدم وتارة يؤخر وتارة يحذف وأخرى يزيد شيئا للغرض نفسه[3].

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾[4]، فقد ذكر مفعول النفع ولم يذكر مفعول الضر ولا شك أنه لو ذكر المفعول به لم تنسجم الفاصلة مع فواصل الآي ولكن الحذف اقتضاه المعنى أيضا فقد ذكر مفعول النفع فقال: (ينفعوكم)؛ لأنهم يريدون النفع لأنفسهم، وأطلق الضر؛ لأن الأنسان لا يريد الضر لنفسه وإنما يريده لعدوه هذا من جهة، ومن جهة أخرى: أنه يخشى من يستطيع أن يلحق به الضرر، فتجد أن الكلمة قد تحافظ على زميلتها في السجع[5].

كما نجد أن الأسلوب القرآنى يتسم ويتصف بالهدوء عندما يتطلب الأمر هدوءا وتأملا وفضل تدبر، كما في الآيات التي تدعو إلى إعمال الفكر، وفي القصص والأخبار والأحكام[6]، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ

(١) سورة الروم: من الآية:٤٨، والآية:٤٩-٥٠.
(٢) التصوير الفني:٦٨.
(٣) ينظر: التعبير القرآني:٢٤٩.
(٤) سورة الشعراء: الآية:٧٢-٧٣.
(٥) ينظر: التعبير القرآني:٢٥٢.
(٦) ينظر: من بلاغة القرآن:١٨٧-١٨٨.

ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[1].

ومما يتميز ويختص به القران أنه يخاطب العقل والقلب والخيال معا ويجمع الحق والجمال معا مثاله في الاستدلال العقلي على البعث والإعادة في مواجهة منكريها كيف يسوق استدلاله سوقا يهز القلوب هزا ويمتع العاطفة إمتاعا بما جاء في هذه الأدلة المقنعة، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[2].

فعند التلبث، والتأمل في هذا النص الكريم نجد الإعجاز البارع الذي أقنع العقل وأمتع العاطفة في آنٍ واحد حتى في الجملة التي هي بمثابة النتيجة من مقدمات الدليل إذ قال في الآية: (إن الذي أحياها لمحي الموتى) ففيها من الجمال الساحر والإعجاز الباهر الذي يستقبل عقل الإنسان وقلبه معا بأقوى الأدلة وأمتع المعروضات في هذه الكلمات المعدودات[3].

(١) سورة الرعد: من الآية:٢-٦.
(٢) سورة فصلت: الآية:٣٩.
(٣) ينظر: مناهل العرفان:٢١٣-٢١٤.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد فقبل أن أضع البنان أسجل بعض النتائج التي توصلت إليها:

١- لقد تجلى جمال لغة القرآن حين خرج إلى الناس في هذه المجموعة من الحروف المختلفة المؤتلفة مما في الحرف من شدة ورخاوة ، ومجهور وهموس، ومستعل ومستفل ، ومطبق ومنفتح، فنجد أن كل صفة من صفات الحروف ناسبت السياق والإيقاع الداخلي في المفردة وفي الجملة.

٢- تبين لنا أن هناك مفردات في اللغة العربية من قبيل الترادف ، ولكن نجدها في القرآن تعطي معنى ودلالة زيادة على رديفتها وأبرز مثال على ذلك: أغطش، وأظلم، فنجد أن الأولى قد ناسبت السياق أكثر من الثانية ؛ لما في الأولى من معنى ودلالة لم تكن في الثانية. والله أعلم.

٣- إن الألفاظ القرآنية التي يعبر عنها القرآن بمعنى من المعاني لو غيرت كلمة واحدة في الجملة لاضطرب المعنى الذي أراد الله أن ينهيه إلى سمعك ، وإنما لو قدمت أو أخرت في الكلام لاختل نسق الكلام ودلالته على المعنى.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

١. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي (ت: ١٣٥٦هـ)، دار الكتاب العربي – بيروت ط٨، ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٥ م

٢. الإعجاز اللغوي والبياني في القرآن الكريم، جمع وإعداد: علي بن نايف الشحود الباحث في القرآن والسنة

٣. تأويل مشكل القرآن: لابن قتيبة الدينوري (٢٧٦هـ)، تحقيق: إبراهيم شمس الدين: دار الكتب العلمية بيروت.

٤. التصوير الفني، سيد قطب، دار الشروق، ٢٠٠٤م.

٥. التعبير القرآني، فاضل صالح السامرائي، دار عمار ، ط٤، ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م.

٦. الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (المتوفى: ٣٩٢هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٤

٧. علوم القرآن الكريم، نور الدين عتر، مطبعة الصباح –دمشق، ١٤١٤هـ –١٩٩٣م .
٨. القاموس المحيط، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (ت: ٨١٧هـ)، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، ط٨، ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م
٩. المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية بالقاهرة (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر/ محمد النجار) ، دار الدعوة .
١٠. مقدمة لدراسة علم الدلالة، طالب محمد إسماعيل، دار كنوز المعرفة، ٢٠١١م.
١١. من روائع القرآن – تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل، محّمد سَعيد رَمضان البوطي، مؤسسة الرسالة – بيروت، ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م
١٢. مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزُّرْقاني (ت: ١٣٦٧هـ)، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط٣.
١٣. النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم، محمد بن عبد الله دراز (ت: ١٣٧٧هـ)، اعتنى به: أحمد مصطفى فضلية، دار القلم للنشر والتوزيع، طبعة مزيدة ومحققة ١٤٢٦هـ– ٢٠٠٥م.